القمر الغريب ...

قصة بقلم فوزي فريد

ساحة البيكاديللي في لندن تغص بالرؤوس والقبعات والمظلات . والسماء المتشحة ببعض الغيوم السنجابية تنذر السائرين بمزيد من الرذاذ المألوف ، والاضواء الكهربائية المتشابكة المتشبثة بواجهات المحال ودور السينما والاوبرا والمسارح والمقاهي والمقاصف واعمدة الطرق تتراقص وتلقي باشعتها الصفراء الشاحبة على وجوه السائرين والمفترشين سلالم التماثيل الضخمة حتى يكاد يخيل الى الزائر الجديد ان هؤلاء جميعا مصابون بذات الرئة .

وقفت سلوى على الرصيف المواجه لسينما امبير لتسوي خصلة الشعر التي تهدلت عفوا على الجبين وتلقي نظرة على بعض صور الفلم الجديد .. وانزلق بصرها عن صور الفلم الى عقارب الساعة التي التصقت بمدخل الدار فأدركت حينذاك ان الساعة قد جاوزت الثامنة مساء وان عرض الفلم قد بدأ فاستدارت وتابعت السير تاركة لقدميها الخيار في ان تنقلاها حيث تريدان . كانت تسير على خط مستقيم دون ان تحاول الالتفات يمنة او شمالا كيلا تشاهد محياها في الواجهات المصقولة وهو بادي الاصفرار بتأثير اضواء النيون . انها تمتعض اذ تشعر بانها نسخة عن الاخرين . انها تريد دوما ان تظل لها تلك الملامح المميزة والسمات المعبرة والشخصية الفذة المتفوقة . كان هذا هدفها منذ الصغر فتميزت عن بنات ضيعتها في نيلها الشهادة الثانوية في سن مبكرة وانفردت عنهن ايضا في التحصيل الجامعي ، ثم اخترقت الفوارق الاجتماعية واستطاعت ان تكون الانثى الوحيدة التي تشغل منصبا مرموقا في السفارة بلندن.

وقفز الى ذهنها سؤال طريف ـ هل هي الان سعيدة ؟ انها لا تستطيع الاجابة على ذلك .. انها لا تدري ما هي امارات السعادة ؟؟ الضحك مثلا ..

انها قلما تضحك او تبتسم ..ولكنها لا تبكي اطلاقا . هي اذن ليست تعيسة ولا سعيدة ولكنها اصبحت تشك في مدى صحة هذه المقاييس . كانت من قبل تعتقد ان البكاء ضعف والضحك الكثير ميوعة، ولكنها لم تعد الان تستطيع الجزم بذلك . ربما لانها اصبحت كثيرا ما تتمنى ان تضحك حتى الثمالة وان تتذوق طعم الدموع ولكنها ما تزال عاجزة عن ذلك.

وايقظها من ذهولها اصطدام كتفها بجسم اخر وصوت اجش صلب يقول ـ آسف .. فالتفتت لتبصر شابا زنجيا عبل البنية صارم المحيا يرتدي بذلة لونها ملائم للون بشرته ويتأبط خصر فتاة شقراء ذات دل وغنج وجمال صارخ .. « آسف » قالها الزنجي بالانجليزية وهو يمضغ شيئا في فمه دون ان يكلف نفسه عناء الالتفات الى التي يخاطبها . ثم غذ السير هو ورفيقته التي كانت تترنح في مشيتها وهي تتأبط خصره ويتوسد رأسها صدره وتغرغر بضحكة ممطوطة .

واحست سلوى فجأة انها تسرع في خطوها كانها تبحث عن شيء معين وتجد في البحث حتى تناله . في طفولتها كانت تبحث عن اللعب والحلوى والثياب فتنالها وفي صباها كانت تبحث عن نظرات الاعجاب والوله وعن النجاح والتفوق واحراز الشهادات وفي شبابها اليانع بحثت عن المنصب الرفيع والمركز الاجتماعي المرموق فاحرزتهما . اما اليوم فانها لا تستطيع ان تتصور انها قعدت عن البحث وانتهت . يخيل اليها احيانا انها تود ان تبدأ البحث بحرارة من جديد وينبغي عليها ان تسرع بذلك ، ولكنها لا تعرف اين تضع قدميها .

وشعرت بقدميها تجرانها عفوا الى مقهى لاروكا فعرتها الدهشة لذلك لانها لم تقصد المجيء اليه ولم تفطن لمجيئها الا عندما وقفت بحركة لا ارادية امام باب المدخل.

واخذت تستعيد في ذهنها وهي ترشف قهوتها على مهل عدد المرات التي ولجت فيها هذا المقهى فلم تستطيع ذلك غير انها تذكرت ان المرة الاخيرة كانت منذ ثلاثة اسابيع في اليوم الذي ودعت فيه صديقتها الانجليزية شيلا التي سافرت الى جزيرة في الجنوب .

لقد جلست معها يومذاك عند تلك المنضدة التي تقبع في الزاوية وتحدثتا مليا حديث الوداع . كان حديث تلك الصديقة يتسم دائما بالصراحة والبساطة ، وهذا ما جعلها تنشد مرافقتها بين الفينة والاخرى. كان يحلو لصديقتها ان تؤكد لها دائما ان الفتاة لا تستطيع ان تحب اكثر من مرة واحدة وانسانا واحدا ولكنها تستطيع معاشرة الكثيرين للسلوى وتزجية الفراغ. وعندما سألتها عن رأيها في ذلك اجابت بانها لا تدري لانها لم تحب احدا بعد . واضافت الى ذلك ابتسامة باهتة اثارت الاستغراب في عيني رفيقتها فاستوضحتها ثانية .

أليس لك أصدقاء ؟

ـ طبعا انني اعرف كل اصدقائي في العمل ..

ـ انا لا اعني معارفك وزملاءك في العمل بل اصدقاءك الخصوصيين..

فزوت سلوى ما بين عينيها وقالت ـ ليس لي اصدقاء بهذا المفهوم . لي صداقات صميمة مع العديد من اترابي ورفيقات الطفولة في الوطن .

ثم تنحنحت وارادت ان تغير دفة الحديث بيد انّ رفيقتها سبقتها الى الكلام بعد ان مجت نفسا طويلا من سيجارتها ونفثت دخانه خطوطا دقيقة تتصاعد وتتلوى ثم تتلاشى في ارجاء المقهى كدثار عفريت صغير.

قالت ـ انا لااستطيع ان اتصور فتاة تعيش في هذا البلد بدون اي حبيب او صديق . ان الحبيب هو الذي يجيء اولا ثم يروح . انه هو الذي ينزع اولا عن القلب غشاوته التي تغلفه باللهفة والغموض والعذرية والترقب حتى يتغلغل في حناياه ثم ينضو عن العواطف اكمامها الناعسة فيعرضها لوهج حبه اللاذع . وعندما يبرح ذلك القلب الى الابد تصبح هذه العواطف فيما بعد قادرة على ان تستقبل افواج الاصدقاء دون ان تتأثر او تختلج . هذا مافعله معي هو بالضبط جوزيف منذ خمس سنوات . كان بالنسبة لي عالما جديدا كله سحر وحرارة ولذة .. كانت الحياة كلها تتكثف في رعشة شفتيه وهو يذيب بهما حرارة شفتي وفي ساعديه وهو يهصر بهما وجودي كله على صدره ، وفي لمسة انامله وهو يفيبها بين طيات شعري وفي نبرات صوته التي تلتقطها كل جارحة من جوارحي وتضن بها على النسيان . ولكنه رحل من حياتي فجأة دون ان يلقي الي حتى بتحية الوداع ، وعلمت بعد ذلك انه سافر الى ماوراء البحار . وقد نعتني البعض بالغريرة الجاهلة عندما كنت احيانا ابدي تأثري وانطوي على نفسي . ولكن ذلك لم يدم طويلا اذ مالبثت ان اتخذت لي بعض الاصدقاء ثم توافد غيرهم . واذكر من بينهم شابا من الباكستان طيب القلب سخي اليد ولكنني انقطعت عن ملاقاته لانه لم يكن مراعيا للاصول عندما يدعوني الى غرفته .

ومهما يكن فباستطاعة الفتاة ان تحظى باصدقاء ممتعين للغاية كادغار مثلا .. انني لن انسى تلك اللحظات الرائعة التي قضيناها معا والامسيات الخاطفة التي انفقناها في حلبات الرقص . كنا نرقص ونرقص

حتى تتلاشي قوانا ونضيع في دوامة الرقص وننسى انفسنا وكل ماحولنا ونتوقف عن التفكير وما اروعها حينئذ من لحظات . ان يطرح الانسان جانبا كل احساس وتفكير وذكرى تلك هي النشوة التامة النادرة .

ولم تدر سلوى كيف اعترضت ذكرياتها هذه صورة زميلها خالد وعبد الوهاب عندما انتحيا بالامس ركنا في زاوية المقهى المجاور لمبنى السفارة . كانت تجلس وقتذاك عند طاولة مجاورة فاستطاعت ان تلتقط نتفا من احاديثهما . وقد حاولت مرارا ان تصرف ذهنها واذنيها عن استراق السمع وذلك بمطالعة المجلة التي امام ناظريها غير ان ذلك الذهن كان دائما ينتفض من بين الحروف المتعانقة ليتلصص ويصيخ السمع وهو حرون . كان خالد يحاول اقناع زميله وقد سمعته يقول :

ـ الا تستطيع الاستغناء عنها يوما واحدا لاجلي وقد عرفت السبب؟؟

ـ كلا لااستطيع ، انا ايضا لدي موعد هام .

ـ لعنة الله عليك وعلى موعدك ، قل اني شحيح كالقرد اضن بالدواليب على خدشات النسيم وببضع ليترات البنزين ان تذهب ادراج الجيوب .

ـ على كل حال انا لم افهم بعد سبب هذا الكذب وتلفيق انباء السفر ؟

ـ ليس ثمة سبب هام . لقد عولت على انهاء علاقتي معها فلفقت لها نبأ سفري واتفقنا على احياء ليلة وداع ممتعة . وها انت الان تبخل علي بالسيارة .

ـ ولماذا تبغي التخلص منها وهي احلى صديقاتك ؟

ـ لست ادري بالضبط .. ربما لانها تزعجني احيانا بكلمات الحب والزواج وتبدي كذلك شيئا من الغيرة .

ـ آه .. فهمت الان ..

ـ وانت .. مع من موعدك العظيم ؟ مع سونيا اليس كذلك ؟

ـ من ؟؟ سونيا ؟ لا لم ارها منذ زمن طويل .

ـ لعل المانع مصيبة ..

ـ المصائب في دماغك فقط .. كل مافي الامر انني مللتها . لاادري كيف انقلبت حرارتها الى صقيع يبعث على الغثيان . تصور انها لاتستنكف عن تدخين السجائر ونحن مختليان .

وحانت من خالد التفاتة الى الوراء فاستدار على عجل وانحنى صوب رفيقه هامسا ..

ـ اخفض صوتك .. سلوى وراءنا .

فاجاب الثاني وابتسامة فاترة تطل من شفتيه ـ لاتخف ، سلوى من الجنس ، الذي يهضم هذا الكلام بسهولة .

غير ان سلوى لم تهضم فكرة البقاء في المقهى بعد ذلك دقيقة واحدة .

لقد احست في تلك الاونة كأن سفودا من الجمر اخذ يراوح ويقترب من وجنتيها ومفاصلها ! هذا الحقير .. الم يفهم بعد اني لست منهن .. لست مصبوبة في القالب الكبير ولن اقبل بتلك المفاهيم التي يلقيها الي الاخرون .. انني لم امزق شرنقتي الشرقية القديمة لكي اوضع من جديد وبكل طيبة خاطر داخل شرنقة شفافة مموهة واخضع لمسبار جديد يلقمني قيافة مفصلة ومفاهيم جاهزة الوكها في المناسبات واجترها حين يقتضي الامر .

وتناهت الى مسامعها اصوات مياه النافورات الاربع فادركت ساعتئذ انها غادرت المقهى وانها قد وصلت الى ساحة الطرف الاغر . وابصرت عن كثب شابا يلوح لرفيقته مناديا حتى اذا اقتربت منه همس في اذنيها ببضع كلمات وارفقها بقبلة خاطفة ثم اسرع مهرولا الى المحطة ليلحق باخر قطار .

واشاحت سلوى برأسها مطرقة . هذه هي الحياة هنا .. الحياة في الشرق هواية وفي هذه البلاد حرفة .. اما حياتها هي فما لونها ؟ ما طعمها ؟ انها لاتدري لانها مازالت تبحث عن ذلك . ولعل هذا هو السبب الذي يجعل الاخرين لايفهمونها ومن بينهم عبد الوهاب . ولكن من قال انها تريد من الاخرين ان يفهموها ؟؟ انها تريد منهم فقط الا ينظروا اليها ويزنوا مشاعرها بمقاييسهم العوراء .. لماذا يعتبرها البعض مجرد زميل ويعتبرها البعض الاخر اشباه عبد الوهاب مجرد انثى أي جسد . انها لم تدرك حقيقة مشاعره الا في تلك الليلة المشؤومة . هل ياترى اخطأت يومها في قبول دعوته الى تلك الحفلة الراقصة ام انها الظروف والمقادير هي التي تخطيء .. ولكن هل تعتقد هي ان الذي حصل في تلك الامسية يعتبر خطأ ؟؟ ابدا .. انه ليس الا مجرد سوء فهم وحسب . لقد دعاها الى الرقص منذ الوصلة الاولى ..فاستجابت. كانت انغام الفالس والتانغو تنساب حالمة فقد غدغدغ اذنيها وروحها وتغلغل الى كيانها كله لتنفحه الخدر المجنح وتلفه بالنشوة والحلم والحرارة .. واستنامت ليمينه تحتضن خصرها بفتون .. واخذت الموسيقى تبتعد رويدا رويدا برفق وحنان .. واقتربت شفتاه رويدا رويدا برفق وحنان .. وخفتت الانغام فالتصقت الشفاه الاربع في قبلة طويلة صامتة .

وارتمت على اريكة قرب النافذة ترتقب بفارغ الصبر اطلالة الوصلة الثانية وتمتع ناظريها بمرأى الاضواء البعيدة الصغيرة كدموع النجوم . وانطلقت الانغام ثانية مع الوصلة الجديدة غير ان احدا لم يدعها الى الرقص فلبثت تنتظر طويلا مغمضة العينين تحلم مع النغم المتماوج . وعندما اذنت الوصلة على الانتهاء قامت تطل على حلبة الرقص وتنقل بصرها بين الراقصين .. فأبصرته يحتضن فتاته تماما كما احتضنها ثم يدني شفتيه رويدا رويدا ليطبع على ثغر الفتاة قبلة طويلة صامتة .

وأحست بأمواج الصقيع تجتاح كل شرايينها وعروقها فاحنت رأسها نصف احناءة وتسللت بكل هدوء الى الخارج دون ان يشعر بخروجها احد . انها لن تفهمهم وهم غير قمينين بفهمها . كلهم يعيشون في القالب الكبير ويتنفسون برئة واحدة وهي لن تعيش معهم .. كلهم كلاب .. كلهم خنازير ..

وايقظها من شرودها بريق اشارة السير الحمراء فادركت انها اصبحت على مقربة من جسر واترلو وان الاعياء قد دب الى مفاصلها لكثرة التجوال .. فعبرت ممر المشاة الى الجسر لتستعيض عن العناء الثقيل ببعض الهواء النقي . وألقت نظرة مستجلية الى السماء فبدت لها الغيوم اشد كثافة من قبل . كانت السحب المتراصة تتمطى وتسير ببلادة وتثاقل الى الجنوب ممسكة بتلابيب بعضها وقد تهرأت اطرافها وتناثرت مزقا صغيرة متمعجة على حواشي السماء .

ومن بين هذه النتف السحابية اطل هلال مقوس مغبر لاتكاد تبصره العين الا بعد لاي وتحديق . وتذكرت سلوى ان هذه اول مرة تشاهد فيها القمر في هذه البلاد . ولكن مابال هذا القمر شاحبا كوجوه الموتى مغبرا كخريف الحياة ؟؟ عهدها به يطل على الكون دورقا من ضياء يرش خدود الليل حزما من زنابق النور ويفرش المروج والروابي والتلال سلال فل وياسمين .. حتى القمر يتغير ويفقد معناه وروحه على هذه الارض. وقفلت سلوى راجعة من حيث أتت دون ان تحاول تجفيف دمعتين تحدرتا بعد جهد تاركتين وراءهما خطين شاحبين نديين . لقد أحست بحاجة ملحة الى ان تتذوق طعما نسيته منذ الطفولة ... طعم الدموع ..

بريطانيا

فوزي فريج

مكتبة عبد القيوم

زوروا مكتبة عبد القيوم ببورتسودان تجدوا احدث المطبوعات العربية ، وكذلك مجلة الاداب البيروتية ومنشورات دار الاداب .